

دلائل الإعجاز

يقولُ : إِنْ نَزَّهَ لَيْسَ يَنْبَغِي لِلْعَاشِقِ أَنْ يَلُومَ مَنْ يَلُومُهُ فِي عَشْقِهِ وَأَنْهُ يَنْبَغِي أَنْ لَا يُنْكَرَ ذَلِكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ لَا يَعْزِلُهُ كُنْزُهُ الْبُلُوَى فِي الْعِشْقِ . وَلَوْ كَانَ ابْتُلِيَ بِهِ لَعَرَفَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعْذَرَهُ . وَقَوْلُهُ - الْكَامِلُ - :

(مَا أَنتَ بِالسَّيِّبِ الضَّعِيفِ وَإِنْ نَزَّ مَا ... زُجَّحُ الْأُمُورِ بِقَوَّةِ الْأَسْبَابِ) .

(فَالْيَوْمَ حَاجَتُنَا إِلَيْكَ وَإِنْ نَزَّ مَا ... يُدْءَى الطَّيِّبُ لِسَاعَةِ الْأَوْصَابِ) .

يقولُ في البيتِ الأولِ : إِنْهُ يَنْبَغِي أَنْ أُنْجَحَ فِي أَمْرِي حِينَ جَعَلْتُكَ السَّبَبَ إِلَيْهِ . ويقولُ في الثاني : إِنْ نَزَّ مَا قَدْ وَضَعْنَا الشَّيْءَ فِي مَوْضِعِهِ وَطَلَبْنَا الْأَمْرَ مِنْ جِهَتِهِ حِينَ اسْتَعْنَا بِكَ فِيمَا عَرَضَ مِنَ الْحَاجَةِ وَعَوَّلْنَا عَلَى فَضْلِكَ . كَمَا أَنَّ مَنْ عَوَّلَ عَلَى الطَّيِّبِ فِيمَا يَعْزِضُ لَهُ مِنَ السُّقْمِ كَانَ قَدْ أَصَابَ بِالتَّعْوِيلِ مَوْضِعَهُ وَطَلَبَ الشَّيْءَ مِنْ مَعْدِنِهِ .

ثم إنَّ العجَبَ في أنَّ هذا التعريضَ الذي ذكرتُ لك لا يحصلُ من دونِ " إِنْ نَزَّ مَا " فلو قلتُ : يتذكَّرُ أولو الألبابِ لم يدلَّ على ما دلَّ عليه في الآية وإنَّ كان الكلامُ لم يتغيَّرْ في نفسه وليس إلاَّ أنه ليس فيه " إِنْ نَزَّ مَا " . والسَّيِّبُ في ذلك أن هذا التَّعريضَ إنما وقعَ بأنَّ كان من شأنِ إِنْ نَزَّ مَا أن تضمَّنَ الكلامُ معنى النفي من بَعْدِ الإثباتِ والتصريحِ بامتناعِ التذكُّرِ ممن لا يَعْقِلُ . وَإِذَا أُسْقِطَتْ من الكلامِ فقيلَ : يتذكَّرُ أولو الألبابِ كان مجردَ وصفٍ لأولي الألبابِ بأنهم يتذكَّرُونَ . ولم يكنْ فيه معنى نفيٍ للتذكُّرِ عمَّن ليس منهم . ومحالٌ أن يقعَ تعرضٌ لشيءٍ ليس له في الكلامِ ذكرٌ ولا فيه دليلٌ عليه . فالتعريضُ بمثلِ هذا أعني بأن يقولَ : يتذكَّرُ أولو الألبابِ بِإِسْقَاطِ " إِنْ نَزَّ مَا " يقعُ إِذَا إِنْ وَقَعَ بِمَدْحِ إِنْ نَزَّ مَا بِالتَّيَقُّظِ وبأنه فعلٌ ما فعلَ وتنبهُ لما تنبَّهَ له لعقله ولحسنِ تمييزه كما يقالُ : كذلك يفعلُ العاقلُ وهكذا يفعلُ الكريمُ . وهذا موضعٌ فيه دقةٌ وغموضٌ وهو مما لا يكادُ يقعُ في نفسِ أحدٍ أنه ينبغي أن يُتعرَّفَ سببُهُ ويُبْحَثَ عن حقيقة الأمرِ فيه .

وممَّا يجبُ لك أن تجعلَه على ذكرِ منكَ من معاني " إِنْ نَزَّ مَا " عرَّفْتُك أولاً من أنها